المطلب الرابع

طلب الاستنجاد بالشركاء والأولياء

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الرابع

الاستنجاد بالشركاء والأولياء

قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يلقى على أهل النار الجوع فيعدل عندهم ما فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصةٍ فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم ينالونه بكلاليب من حديد فإذا دنا منهم شوى وجوههم وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم فيطلبون إلى خزنة جهنم: أن ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ**﴾ (سورة غافر: ٤٩).

فيجيبونهم: ﴿**قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ (سورة غافر: ٥٠).

فيقولون: سلوا مالكًا، فيقولون: يا مالك! ليقض علينا ربُك فيقول: ﴿**إنكم ماكثون**﴾ (سورة الزخرف: ٧٠).

فيقولون: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨).

---

(١) رواه مسلم.

فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

وتفكر في حياتها وعقاربها، ففي الحديث: «**إن حياتها أمثال أعناق البخت، وعقاربها كالبغال الموكفة**».

وعن الحسن: «**إن النار تأكلهم في كل يوم سبعين ألف مرة، ثم يعودون كما كانوا**»[1].

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان هلم إلى العرض على الله تعالى، وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الاسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك وتغير لونك وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق أبصارهم إليك وأنت في أيديهم وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك!

فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها، وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيمًا، فيا حسرة

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص: ٤٤٩).

قلبك وأسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (سورة الحاقة:١٩)، فعلم أنه من أهل الجنة، ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقة:١٩)، وذلك حين يأذن لك الله فتقرأ.

مثُل وقوفك يوم العرض عريانا ■★■ مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ■★■ على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ■★■ فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ■★■ إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ■★■ وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غدا في النار يلتهبوا ■★■ والمؤمنون بدار الخلد سكانا[1]

(١) القرطبي: التذكرة (ص:٣٠٧).

قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة إبراهيم: ٢١-٢٢).

يقول تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار أي: اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل وقالوا لهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا.

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت لهم القادة: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

ويخبر الله تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبًا

ليزيدهم حـزنًا إلى حزنهم وغبـنًا إلى غبنهم وحسـرة إلى حسرتهم فـقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله ووعدكم في اتباعهم النـجاة والسلامة وكان وعدًا حقًا وخبرًا صدقًا وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (سورة النساء: ١٢٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به.

﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقـد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيـحة على صدق ما جاءوكم به فخالفتـموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه.

﴿فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم.

﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل.

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: بسبب ما أشركتموني من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكًا لله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الراجح كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف: ٥-٦)، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (سورة مريم: ٨٢).

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم ظاهر.

فعن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم - وذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى - فيقول عيسى: ادلكم على النبي الأمي، فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلس من أطيب ريح شمها أحد قط حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: ها قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت من أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم نحيبهم ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب: لما قال أهل النار: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال لهم إبليس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (سورة غافر: ١٠)[2].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾: ذُكر لما أن أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص: ٥٤٤، ٥٤٥).
(٢) «ابن كثير»، «تفسير القرآن» (جـ٢، ص: ٥٤٥).

الطاعة لله عزَّ وجلَّ فنفعهم الصبر إذ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم فجزعوا فنادوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: منجي، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: لست بمغنٍ عنكم شيئًا.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ فلا أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي، والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة والمُصرخ هو المغيث[1].

قال الزمخشري: قال تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخًا لهم وعتابًا على استتباعهم وإغوائهم وقولهم فهل أنتم مغنون عنا من باب التبكيت لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم[2].

يقول سيد قطب: لقد انتقلت الرواية رواية الدعوة والدعاة والمكذبين والطغاة... انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المكذبون الطغاة وأتباعهم من الضعفاء المستذلين. ومعهم الشيطان... ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات... برزوا ﴿جَمِيعًا﴾ مكشوفين وهم مكشوفون دائمًا، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ولا يسترهم ساتر ولا يقيهم واق... برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار وبدأ الحوار: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾...

---

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٩، ص:٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٢، ص:٣٧٣).

والضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا بل هو الجريمة فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به ـ والعزة لله ـ وما يريد الله أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه، أو أن ينزل كارهًا، والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه هذه القوة أن تملك الجسد تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة، فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالاً أو منصبًا أو مقامًا... كلا إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة والطواغيت قلة، فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!.

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير، فهي قادرة دائمًا على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء... وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ؟

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة وتعريضهم إياهم للعذاب؟

إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ !... وهو رد يبدو فيه البرم والضيق.

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ فعلام تلومونا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضلكم. ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله فيعترفون بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار، وهم إنما يتهربون من تَبِعة الضلال والإضلال يرجع الأمر لله، والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨).

ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر، فقد حق العذاب ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان فيه الجزع من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله، لقد انتهى كل شيء ولم يعد هنالك مفر ولا محيص!: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ لقد قضي الأمر وانتهى الجدل وسكت الحوار، وهنا نرى على المسرح عجبًا، ونرى الشيطان هاتف الغواية وحادي الغواة نراه الآن يلبس مسوح الكهان أو مسوح الشيطان أو يتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

الله! الله! أمَا إن الشيطان حقًا لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار.

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور وأغرى بالعصيان وزين الكفر وصدهم عن استماع الدعوة، هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضى الأمر ـ هو الذي يقول الآن وبعد فوات الأوان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾!

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له وليس له عليهم من سلطان سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ثم يؤنبهم ويدعوهم لتأنيب أنفسهم. يؤنبهم على أن أطاعوه!.

﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ثم يخلي بهم وينفض يده منهم وهو الذي وعدهم من قبل ومنَّاهم ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ!

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ!﴾ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة، الأمة الفائزة، الأمة الناجية: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٣). ويسدل الستار.

فيا له من مشهد ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة[1]!

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٠٩٥-٢٠٩٨).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة القصص: ٦٢-٦٤).

يقول تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون، وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤).

وقوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر.

﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فشهد عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (سورة مريم: ٨١-٨٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥-٦)، وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٥)،

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (سورة البقرة:١٦٦)، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (سورة الكهف: ٥٢-٥٣)[1].

﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والله يعلم أنه لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئًا ولا يستطيعون إليهم سبيلا، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد.

ومن ثم لا يجيب المسئولون عن السؤال فليس المقصود به هو الجواب! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم وصدهم عن هدى الله، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾!

ربنا إننا لم نغوهم قسرًا فما كان لنا من سلطان على قلوبهم إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من جريمة إغوائهم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٤١٠-٤١١).

﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنما كانوا يعبدون أصنامًا وأوثانًا وخلقًا من خلقك ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة!

عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها بخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله!

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم!.

والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لم يكن منتظرًا غير ذاك ولكنه الإذلال والإعنات!

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ رأوه في هذا الحوار ورأوه ماثلاً وراءه فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب: وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٧٠٦).

obeikandi.com

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (سورة الكهف: ٥٢-٥٣).

يخبر الله تعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا.

﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم لينقذوكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤)، وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ (سورة القصص: ٦٤)، وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥)، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (سورة مريم: ٨١-٨٢).

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ قال ابن عباس: مهلكًا.

وقال قتادة: موبقا: هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال أنس بن مالك: موبقًا: واد في جهنم من قيح ودم.

والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد الفريقين إلى الآخر بل بينهم مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فإذا ﴿ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا يدلهم منها.

قال رسول الله ﷺ: **«ينصب الكافر مقدار خمسين الف سنة كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر يرى جهنم ويظن انها مواقعته من مسيرة اربعين سنة»**[1].

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ إنهم في الموقف الذي لا تجدي فيه دعوى بلا برهان، والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا... وإنهم لفي ذهول ينسون أنها الآخرة فينادون، لكن الشركاء لا يجيبون! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا في الموقف المرهوب وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء... إنها النار.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ ويتطلع المجرمون فتمتلىء نفوسهم بالخوف والهلع وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها، وما أشق توقع العذاب وهو حاضر، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص.

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ولقد كان لهم عنها مصرفًا لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به[2].

---

(١) رواه أحمد ـ «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٩٢-٩٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص: ٢٢٧٥).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٣١-٣٣).

يخبر الله تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وبما أخبر به من أمر المعاد ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومخبرًا على مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع، ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم، ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب مبين.

﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قال قتادة: والمعنى: بل مكركم بالليل والنهار.

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاء وأشياء من المحال أن تضلونا بها.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كُلٌّ ندم على ما سلف منه.

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم.

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»**.

قال الحسن بن يحيى الخشني: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا اسم صاحبه عليها مكتوب... فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجليه والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل المغار؟[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٥٥٦-٥٥٧).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى في كل مصادره، لا القرآن ولا الكتب التي سبقته والتي تدل على صدقه، فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد، ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا في دلائل الهدى كائنة ما كانت. فهو العمد إذن وسبق الإصرار!.

عندئذ يجيبهم بمشهدهم يوم القيامة وفيه هذا الإصرارا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

ذلك كان قولهم في الدنيا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فلو ترى قولهم في موقف آخر.

لو ترى هؤلاء الظالمين وهم ﴿ مَوْقُوفُونَ ﴾ على غير إرادة منهم ولا اختيار إنما هم مذنبون بالوقوف في انتظار الجزاء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ . . . ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه. ثم ها هم أولاء موقوفون عنده! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضًا ويؤنب بعضهم بعضًا، ويلقى بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ فماذا يرجعون من القول؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة وما يتوقعون بعدها من البلاء! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام وبيع الحرية التي وهبها الله لهم والكرامة التي منحها إياهم والإدراك الذي أنعم به عليهم، أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة وواجهوا العذاب الأليم فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين! ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا فهم في البلاء سواء، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحمِّلوهم تبعة الإغواء التي صار بهم إلى هذا البلاء، وعندئذ يردون عليهم باستنكار ويجيبونهم بالسب الغليظ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، فهو التخلي عن التبعة والإقرار بالهدى وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزنًا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأيًا ولا يعتبرون لهم وجودًا ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما اليوم ـ وأمام العذاب ـ فهم يسألونهم في إنكار: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ ... ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ من ذات أنفسكم لا تهتدون لأنكم مجرمون!.

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون بل يجابهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارًا ولا ليلاً للصد عن الهدى وللتمكين للباطل ولتلبيس الحق وللأمر بالمنكر ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء وهؤلاء ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين فلكل جريمته وإثمه، والمستكبرون عليهم وزرهم وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم، والمستضعفون عليهم وزرهم فهم مسئولون عن اتباعهم للطغاة لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين. لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين فاستحقوا العذاب جميعًا وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضرًا لهم مهيأ.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور فلا تفوه بها الألسنة ولا تتحرك بها الشفاه، ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد.

﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين!

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان وإدراك الإنسان وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان... وكلهم في العذاب سواء لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

ويسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعدُ أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنهم يرونهم، وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء![1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩٠٩-٢٩١٠).

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٤٠-٤٢).

إن الله عزَّ وجلَّ يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة: ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أي: أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (سورة الفرقان: ١٧)، وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ (سورة المائدة: ١١٦).

وهكذا تقول الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله.

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء.

﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ (سورة النساء: ١١٧-١١٨)، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا.

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون.

﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا[١].

... يواجه الله عزَّ وجلَّ الظالمين بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يذوقون عذاب النار الذي كانوا به يستعجلون ويقولون: متى هذا الوعد؟ كما جاء في أول الشوط.

... فهؤلاء هم الملائكة التي كانوا يعبدونهم من دون الله أو يتخذونهم عنده شفعاء، هؤلاء هم يواجهون بهم. فيسبحون الله تنزيهًا له من هذا الادعاء ويتبرأون من عبادة القوم لهم فكأنما هذه العبادة كانت باطلاً أصلاً، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة. إنما هم يتولون الشيطان إما بعبادته والتوجه إليه وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان! ذلك إلا أن عبادة الجن عرفت بين العرب وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة، ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت.

﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ لا الملائكة يملكون للناس شيئًا ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئًا، والنار التي كذب بها الظالمون وكانوا يقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ها هم أولاء يرونها واقعًا لاشك فيه[٢].

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص:٥٥٩).

(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩١١).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٤٧-٤٨).

يخبر الله تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨)[١].

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمّعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنمًا تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار!.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسان وكرامة التبعة الفردية وكرامة الاختيار والحرية، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعًا، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، لم يقولوا لهم: لا، بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال... ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٨٣).

وما كان تنازلهم عـما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكونوا شـفعاء لهم عند الله، فهم في النار، ساقهم إليها قادتهم كما كـانوا يسوقونهم في الحياة سوق الشياة! ثم ها هم يسألون كبراءهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشـاد وأنهم يحمونهم من الفسـاد وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء!.

وأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ إنا كل ضعاف لا نجد ناصـراً ولا معيناً، إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء، فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء!؟

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجـال لتغيير فيه أو تعديل وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٤).

قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الصافات: ٢٧-٣٤).

يذكر الله تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار.

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنَّا كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق.

﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة الإيمان قابلة للكفر والعصيان.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه.

﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله أنَّا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة.

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة.

﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الجميع في النار كل بحسبه.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي في الدار الدنيا[1].

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أي كنتم توسوسون لنا عن يميننا ـ كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالإسرار غالبًا ـ فأنتم مسئولون عما نحن فيه.

وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام وإلقاء التبعة على موجهيه.

﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان وأضلتكم بعد هدى.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ نرغمكم به على قبول ما نراه ونضطركم إليه اضطرارًا لا ترغبون فيه.

﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين للحق ظالمين لا تقفون عند حد.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٥).

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ فاستحققنا نحن وأنتم العذاب وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب! وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا.

﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ وهنا يرد تعليق آخر وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد يحمل أسبابه ويعرض ما كان منهم في الدنيا مما حقق قول الله عليهم في الآخرة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٢٩٨٧).